بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، محمد وآله الطيبين الطاهرين

واللعن الدائم على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين.

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ لقمان (٤).

المنطلق الرابع: المنطلق العلمي.

وبيان هذا المنطلق يعتمد على ذكر أمور:

الأمر الأول: هناك مقولة علمية وهي: (إن الطاقة لا تفنى ولا تستحدث). والمراد بهذه المقولة أن الطاقة لا تعيش فناءً وحدوثاً من جديد، وإنما هي تتجدّد وتنتقل من صورة إلى أخرى، فمثلاً: الطاقة الكامنة في البذرة تتحول إلى ساق فشجرة فثمرة ثم تعود بذرة مرة أخرى، والطاقة الكامنة في جسم الإنسان تتحول إلى حركة فحرارة فهواء يتنفّسه الإنسان، وبالتالي فكل طاقة هي تعيش انتقالاً من صورة إلى أخرى لا أنها تعيش فناءً وحدوثاً من جديد.

الأمر الثاني: أن للإنسان بُعديْن بُعداً مادياً وهو جسمه المادي، وبُعداً روحيا وهي الطاقة التي نفخها الله في الجسم المادي المعبر عنها بالنفس، ولو كان الإنسان مجرد بُعد مادي لكان نتاجه وإنجازه كسائر الحيوانات الأخرى، ولكن تَمَيُّزَ الإنسان على بقية المخلوقات في إنتاجه وإنجازاته يكشف عن وجود بعد آخر عنده وراء البعد المادي، ألا وهو تلك الطاقة المعبر عنها بالنفس أو المعبر عنها بالروح.

الأمر الثالث: أن هذه الطاقة من أجلى ظواهرها قابليتها للتعلم واسترفاد المعلومات، وقد قرر علماء النفس أن قابلية الإنسان للتعلم لا تنتهي حتى لو عاش آلاف السنين، نعم قد يعرض عليه الهرم ولكن ما لم يُصب بعاهة تمنعه عن التعلم فإن قابليته للتعلم واسترفاد المعلومات تبقى حاضرة قائمة مهما تقدم في عمره، وبالتالي فإن النفس الإنسانية تتسع باتساع المعلومات، بمعنى أنها كلما احتوت على معلومات ازدادت مساحة وجود الإنسان نفسه، لا بنحو اتساع المكان بالمكين بل من باب اتساع العلة بآثارها ومعلولاتها، كالنار التي كلما أُلقي فيها وقود وحطب زادت قوةً واشتعالاً، وكذلك النفس الإنسانية كلما ازدادت من

معلومات اتسعت رقعة وجودها بحيث تكون أقوى تركيزاً وتأملاً من أيّ نفس أخرى لا تحمل هذا المستوى من المعلومات التي ترد عليها.

وبالتالي فإن اتساع النفس باتساع المعلومات يكشف عن طاقة كامنة في النفس يكون التعلم بالنسبة لها كالمثير، بمعنى أن هناك طاقة كامنة والتعلم يثير تلك الطاقة ويحولها من مستوى القوة إلى مستوى الفعلية ويجعلها متأصلة متمركزة في كيان الإنسان، وهذه الطاقة – أي: طاقة التعلم والاسترفاد – لا تسعها هذه الحياة الدنيا، أي أن العمر الذي يعيشه الإنسان حتى لو بلغ مائة سنة أو مائة وخمسين سنة ليس كافياً لتغطية الطاقة التي يحملها الإنسان وهي طاقة حمل المعلومات واكتسابها، مما يعني أن هناك حياة أخرى يعيش فيها الإنسان تكون تلك الحياة كافية ومنسجمة مع الطاقة الهائلة التي يمتلكها وهي طاقة التعلم واسترفاد المعلومات.

وهذه الطاقة العملاقة التي يمتلكها الإنسان لو عرض عليه الموت فإنها لا تفنى بل تتبدل من صورة إلى صورة أخرى، فمعنى قوله عز وجل: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ العنكبوت (٥٧) أو معنى قوله عز وجل: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ الرحمن (٢٦) أن النفس تنتقل من صورة إلى صورة أخرى، فإنها كانت في صورة جسدية مادية ثم تتحول إلى صورة برزخية ثم تعود إلى صورة مادية أخرى كأي طاقة تلبس صورة بعد صورة وتعيش تجدداً ونمواً، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ ق (٢٢).

هذا حاصل المنطلق العلمي.

ويلاحظ عليه:

الملاحظة الأولى: أن هذه المقولة العلمية (الطاقة لا تفنى ولا تُستحدث) ليس المقصود بها أن الطاقة أزلية – بمعنى أنها غير مسبوقة بعدم – وإنما المقصود بها أن هذه الطاقة في عالم المادة لا تفنى ولا تُستحدث، أي أنها بعد أن توجد في عالم المادة فهي تعيش حالة من التجدد والنمو دون فناء وحدوث، ولا يعني ذلك أن الطاقة أزلية لم يسبقها عدم، وباعتراف سائر علماء الفيزياء فإنهم يقرّون أن طاقة الكون كله سبقها عدم وليست بأزلية بل هي تكوّنت من شيء سابق، ولعل هذا ما أشارت إليه السيدة الزهراء – صلوات الله وسلامه عليها – في خطبتها المعروفة حيث قالت: (ابتدع الاشياء لا من شيء كان قبلها، وأنشأها بلا احتذاء

امثلة امتثلها، كوّنها بقدرته، وذرأها بمشيئته)[١] فإنه يحتمل أن المقصود بذلك أن خلقه تعالى لسائر الكون والوجود من قبيل الابتداع، ومعنى أنه من سنخ الابتداع أنه لم يقم على أساس مادة قبله ولا على مخطط يُقاس عليه، فإن سائر بني الإنسان لا يمكنهم صنع أي شيء إلا بعنصرين: المادة والمخطط، فلو أراد الإنسان أن يصنع بيتاً أو أن يصنع لوحة فنية فإنه يحتاج إلى عنصرين:

العلة المادية؛ لأن لكل شيء علتين علة مادية وعلة صورية، فالإنسان يصنع العلة الصورية، ولكن العلة المادية يكتسبها من غيره، كما يحتاج إلى العنصر الثاني وهو المخطط الذي يقيس عليه ويبرمج عليه ما يريد صنعه.

وأما خلق الله تبارك وتعالى فهو ابتداع لم يستند إلى مادة تنبثق منها الأشياء، ولم يستند إلى برنامج يقيس عليه ما يريده من الأشياء، وإنما إيجاده للوجود كله استند إلى علمه وحكمته.

ومن هنا يقرر علماء الفيزياء أن محصلة طاقة الكون صفر، بمعنى أن طاقة الوجود كله جاءت بدون شيء قبلها، فهي انطلقت من الصفر، وانبثقت قوتين قوة سالبة وهي قوة الجاذبية وقوة موجبة وهي ثلاث قوى: قوة نووية شديدة وقوة نووية ضعيفة وقوة كهرومغناطيسية، وقوة الجاذبية تعادل القوة الموجبة فهما متساويان سلباً وإيجاباً بحيث تُشكل المحصلة من مجموعهما صفر.

إذاً عندما يقال بأن الطاقة لا تفنى ولا تستحدث لا يُقصد بذلك أنها أزلية، بل هي حادثة مخلوقة غايته بعد أن وُجدت في عالم المادة أصبحت طريقتها طريقة النمو والتجدد وليس طريقة الحدوث بعد الفناء.

الملاحظة الثانية: إن الطاقة قابلة للفناء والزوال مهما كانت مساحتها، والسر في ذلك أن كل ما عدا الله تعالى فهو محدود، وكل محدود فهو يحمل في طياته قابلية الفناء والزوال، ولا يمكن أن يكون الوجود ذاتياً إلا لوجوده تبارك وتعالى، وهذا ما أشارت إليه الآية المباركة: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ القصص (٨٨).

هذا حاصل المنطلق العلمي وما يلاحظ عليه.

المنطلق الرابع: المنطلق الحِكَمِي.

---

(١) الاحتجاج ج١ ص١٣٣.

ذكر علماء الفلسفة أن الوجود يعتمد على مقدمتين:

المقدمة الأولى: الحركة الجوهرية.

فإن كل موجود يعيش حركة جوهرية في صميم وجوده، بحيث ينتقل من الحال ثم إلى الملكة ثم إلى الفناء. فمثلاً: عندما يُزاول الإنسان الشعر فإنه ينتقل ضمن حالات ثلاث:

١- في البداية يزاول الشعر على أنه حال من أحواله.

٢- ثم يتحول الشعر عنده بمرور المدة إلى ملكة وفن يقتدر عليه.

٣- ثم ينصهر بالشعر إلى حد أنه لا يتكلم إلا شعراً ولا يفكر إلا شعراً فهذه الحركة من حال ثم إلى ملكة ثم إلى فناء تسمى بالحركة الجوهرية.

وهذه الحركة الجوهرية تنطبق على الإنسان منذ أول وجود يعيشه وهو جنين في رحم أمه، كما أشارت إليها الآيات المباركات: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ المؤمنون (١٢-١٤) فإن هذه المراحل التي تحدثت عنها الآية المباركة تمثل حركة جوهرية يعيشها الإنسان حتى يصل إلى هذا المستوى من الإحساس والشعور.

المقدمة الثانية: مقتضى الحركة الجوهرية في الإنسان فناء الإنسان إما في الخير وإما في الشر، فإن الإنسان إما أن يكون مزاولاً للخير حتى يكون الخير جزءا من وجوده، أو يكون مزاولاً للشر حتى يكون الشر جزءاً من وجوده، وإذا أصبح الإنسان خيراً محضاً بحيث أصبح الخير جزءاً من وجوده نتيجة لفنائه فيه فإنه يصبح مصدراً للخيرات، فلا يصدر منه إلا الخير كما في المعصومين صلوات الله وسلامه عليه أجمعين، وإذا توغّل في الشر أصبح لا يفكر إلا شراً ولا يصدر منه إلا الشر بل يصبح منبعاً من منابع الشرور كما في الطغاة والجبابرة.

والحاصل: إن الإنسان إذا أصبح مصدراً للخير فإن الحياة الدنيا لا تسعه، فكلما عاش فاض خيراً بحيث لا يتسع العمر إلا لمساحة الخير الذي يصدر منه، وإذا أصبح شراً أيضاً لم تتسع له الحياة الدنيا بحيث لا تتحمل طغيانه وظلمه وشره، وهذا يلزم منه وجود حياة أخرى تتمظهر فيها مصدريته للخير أو مصدريته للشر، وهذا ما سنوضحه أكثر عندما نصل إلى المنطلق القرآني.

المنطلق الخامس: المنطلق القرآني.

والمنطلق القرآني نوعان: عقلي وخَلقي.

أما النوع الأول وهو المنطلق القرآني العقلي فيتضح بذكر أمرين:

الأمر الأول: حقيقة المعاد في القرآن الكريم.

والأمر الثاني: تركيز القرآن الكريم على المعاد الجسماني.

أما بالنسبة للأمر الأول:

فعندما نقرأ الآيات القرآنية نجد أن حقيقة المعاد في القرآن الكريم هي عبارة عن ظهور الغيب، أي: أن ما كان غائباً أصبح ظاهراً ومنكشفاً، قال تبارك وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ النحل (٧٧) والمقصود بالآية المباركة أن الوجود الذي نعيش فيه له وجهان:

١- وجه ظاهر وهو عالم المادة، وهو ما يعبر عنه بعالم المُلك، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ الملك (١).

٢-ووجه غائب وهو ما يعبر عنه بعالم الملكوت.

وهذا الوجه الغائب من الوجود الذي نعيش فيه لن يظهر لنا ولن ينكشف لنا إلا في الحياة الآخرة، ولذلك قال تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ ق (٢٢).

والنتيجة أن حقيقة المعاد في القرآن أنه يوم انكشاف العلم الحقيقي للإنسان الذي لم يكن قد انكشف له وهو في الدنيا، لذلك ورد عن الإمام أمير المؤمنين علي – عليه السلام – أنه قال: (لو كُشف لي الغطاء ما ازددت يقينا)[٢٠] بمعنى أن مستوى اليقين الذي يمتلكه أمير المؤمنين عليه السلام بمستوى من انكشفت له الآخرة بجميع تفاصيلها.

وأما بالنسبة للأمر الثاني فنقول:

---

[٢٠] (إرشاد القلوب :٢١٢.

إن القرآن الكريم بشكل متكرر يركز على أن المعاد إنما هو معاد جسماني وليس معاداً روحياً لذلك يُكرر في آياته هذه الحقيقة عندما يقول مثلا: ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾يس(٧٧-٧٨).

وأما المنطلق القرآني الخَلقي في القرآن الكريم فبيانه بأن يقال:

القرآن الكريم يُصنف الإنسان إلى ناري ونوري، فالإنسان الناري هو الذي تشير إليه الآية المباركة في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ التحريم (٦).

وهناك إنسان نوري هو قطعة من النور وإن لم يلتفت الناس إلى نوره، قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ التحريم (٨) أي: أنهم قطع من النور يتم نورهم يوم القيامة بلقاء الله تبارك وتعالى.

ويقول تبارك وتعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ منها﴾ الأنعام (١٢٢).

والنتيجة: هناك إنسان ناري وإنسان نوري وكل منهما يكتسب الوصف من عمله، فالعمل هو الذي يحوّل الإنسان إلى نوري أو ناري، بمعنى أن للإنسان ماهية وراء ماهيته التكوينية، فماهيته التكوينية أنه حيوان ناطق – كما يعبرون – لكن له ماهية نارية أو نورية يكتسبها من خلال الإصرار على عمل معين، وهذا ما يعبر عنه علماء الأخلاق بتجسم الأعمال فإن الأعمال تتجسم يوم القيامة، فعندما نقرأ قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ الجاثية (٢٨) وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ آل عمران (٣٠).

والحاصل: بما أن الإنسان إما ناري أو نوري، وهذه النارية لا تتمظهر في هذه الحياة وكذا النورية كان لابد من وجود حياة أخرى تتمظهر فيها، وإلا لكان وجود الإنسان في هذه الحياة لغوا وعبثا، فهذا ما يؤكد ضرورة يوم المعاد بحسب المنطلق القرآني الذي بيناه.

والحمد لله رب العالمين.